النفس

(بين شوقي وابن سينا)

(تكرَّم أمير الشعراء في هذا العصر احمد بك شوقي فأتحف المقتطف بقصيدة فلسفية عارض بها نفسية امير اطباء العرب وفلاسفتهم الشيخ الرئيس ابن سينا . والاثنان جريا مجرى افلاطون في حسبان النفس روحاً كانت عند الخالق ثم هبطت ودخلت جسم الانسان . الاّ ان افلاطون تصورها فرساً مجنحة غذاؤها الجمال والحكمة والصلاح فلما هبطت فقدت جناحيها ودخلت جسم الانسان. والفلاسفة يشعرون بشيء لا يستطيعون معرفتهُ فيصفونهُ كما يتصورونهُ ويجاريهم الشعراء في التصوُّر ويفوقونهم في الوصف)

قصيدة ابن سينا

هبطت اليكَ من المحل الارفعِ ... ورقاء ذاتُ تعزُّزٍ وتمنعِ
محجوبة عن كل مقلة عارف ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كرهٍ اليك وربما ... كرهت فراقك وهي ذاتُ تفجع
ألفت وما سكنت فلما واصلت ... أَلِفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنُّها نسيت عهوداً بالحمى ... ومنازلاً بفراقها لم تقنع
حتى اذا اتصلت بها هبوطها ... عن ميم مركزها بذات الاجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت ... بين المعالم والطلول الخُضَّع
تبكي وقد ذكرت عهوداً بالحمى ... بمدامع تهمي ولمَّا تقلع
وتظلّ ساجعةً على الدِّمَن التي ... درَسَتْ تكرار الرياح الاربع
اذ عاقها الشَّرك الكثيف وصدها ... قفصٌ عن الاوج الفسيح المَرْبع
حتى اذا قرب المسير من الحمى ... ودنا الرحيل الى الفضاء الاوسع
وغدتْ محالفة لكل محلّفٍ ... عنها حليف التُّرب غير مشيّع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرتْ ... ما ليس يدرك بالعيون الهُجَّع

وغدت تُغرِّدُ فوقَ ذروةَ شاهقٍ ... والعلم يرفع كلَّ من لم يُرقَعِ
فلايّ شيء أهبطت من شاهقٍ ... عالٍ الى قعر الحضيض الاوضع
ان كان أهبطها الاله لحكمة ... طويت على الفذ اللبيب الاروع
وهبوطها ان كان ضربة لازب ... لتكون سامعة بما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية ... في العالمين فحرقها لم يرقع
وهي التي قطع الزمان طريقها ... حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنها برق تألق بالحمى ... ثم انطوى فكأنه لم يلمع

قصيدة شوقي بك

ضُمّي قِياعَكِ يا سُعادُ أو ارفَعي ... هذي المحاسنُ ما خُلِقنَ لبُرقُعِ (١)
الضاحياتُ الضاحِكاتُ ودونها ... سِترُ الجلال وبُعدُ شاوٍ المَطلَعِ (٢)
يا دُمْيَةً لا يُستَزادُ جمالُها ... زِيدِيهِ حُسنَ المُحسِنِ المُتبرِّعِ
ما ذا على سلطانهِ من رقّةٍ ... للضارعين وعَطفةٍ للخُشَّعِ
بل ما يَضُرُّكِ لو سَمَحتِ بجلوةٍ ... إنّ العروس كثيرةُ المُتطلِّعِ
ليس الحجابُ لمن يَعِزُّ منالُهُ ... إنّ الحجاب لهيّنٍ لم يُمنَعِ
انتِ التي اتخذَ الجمالُ لعزّهِ ... من مَظهرٍ ولسرّه من مَوضِعِ (٣)
وهو الصّناعُ يَصوغُ كلَّ دقيقة ... وأدقُّ منكِ بَنانُهُ لم تصنَعِ (٤)
لمسَكِ راحتُهُ ومسّكِ روحُهُ ... فأتى البديعُ على مثال البُدّعِ
لله في الأحبار من مُتهالكٍ ... نِضوٍ ومهتوك المُوح مُضرَّعِ (٥)

(١) الخطاب النفس خاطبها كما يخاطبها فيلسوف علم بدائها وبحث عن حقيقتها فرآها تزيد حسنا كلما زاد بحثاً مع انها اقرب ما يكون اليه (٢) الضاحيات الظاهرة البارزة وصف بها محاسن النفس وقال انها مع ذلك مطلعها بعيد وجلالها مستور (٣) « من » زائدة والمعنى ان النفس اتخذها الجمال مظهرا لسره وموضعاً لسره (٤) الصناع الماهر في الصناعة (٥) نصب اسم الجلالة على الاستغاثة والكلام في الابيات الخمسة بعده وصف لما عاناه الاحبار والفلاسفة من البحث عن حقيقة النفس فشق طريقهم كلما زادوا بحثاً اما الخاطرون في زاحة سائرون في الهيع اي الطريق الواسع البين

من كل غاوٍ في طَوِيّة راشِدٍ عاصي الظواهر في سَريرة طيّعِ
يَتوهّجون ويَطفأون كأنهم سُرُجٌ بمُعتَرَك الرياح الأربَع
عَلِموا فضاقَ بهم وشَقَّ طريقهم والجاهلون على الطريق السَمَيْع
ذَهَبَ (ابن سينا) لم يَفُزْ بك ساعةً وتولّت الحكماء لم تتسَمَّع
هذا مَقامُ كُلُّ عزٍّ دونهُ شمسُ النهار بمثلهِ لم تطمع
(فمحمدٌ) لك و(المسيح) ترجّلاً وترجّلت شمسُ النهار (ليوشع)[1]
ما بالُ (أحمدَ) عيَّ عنك بيانهُ بل ما (لعيسى) لم يقُلْ او يدّعِ
ولسانُ (مُوسى) أحلَّ الأعقدَهْ من جانبَيْكِ علاجُها لم يَنجع
لما حللتِ (بآدمٍ) حلَّ الحِجى ومشى على الملأ السجود الرُكَّع[2]
وأرى النبوّة في ذراكِ تكرّمتْ في (يوسفٍ) وتكلّمتْ في (المُرضَع)[3]
وسَقَتْ (قريشَ) على لسان (محمّدٍ) بالبابليّ من البيان المُمتَع[4]
ومَشتْ (بموسى) في الظلام مشرّداً وحدَتْهُ في قُلل الجبال اللمَّع[5]
حتى اذا طُويَتْ ورثتِ خِلالها رُفِع الرَّحيقُ وسرُّهُ لم يرفَع[6]
قسمتْ منازلَك الحظوظُ فمنزلاً أترعتَ منكِ ومنزلاً لم تترع[7]
وخليّةٌ بالنحل منك عميرةٌ وخليّة معمورةٌ (بالتُبَّع)[8]
وحظيرةٌ قدأُوديتْ غُرَرَ الدُمَى وحظيرةٌ محرومةٌ لم تودَع[9]
نظرَ (الرئيس) الى كمالكِ نظرةً لم تَحلُ من بَصَر اللبيب الأروَع

(١) الضمير في لك يرجع الى النفس أراد بها الجوهر الالهي (٢) حل الحابس والمقصود هنا تقديس الروح العالي الذي نفخ الله في آدم (٣) اراد بيوسف يوسف الصديق لما عف وتكرم وان النفس بلغت فيه الكمال واراد بالمرضع السيد المسيح (٤) أراد بالبابلي السحر اشارة الى قوله ان من البيان لسحرا (٥) اشارة الى العنيفة المقتبة (٦) فاعل طويت يعود الى النبوة . والخلال الصفات والمزايا التي يبقى اثرها كما يبقى اثر الخمر بعدما تزول (٧) المنازل اي الاجسام التي تحلها النفوس والضمير في اترعت يرجع الى الحظوظ (٨) التبع اعظم النحل اراد بها ملكاته (٩) الدمى الصور او التماثيل الجميلة . اشار بما في الابيات الثلاثة المتقدمة الى تفاوت النفوس في الناس

فرآهُ منزلةً تعرَّضَ دونها قِصَرُ الحياة وحالَ وشكُ المَصْرَع
لولا كمالُك في (الرئيس) ومثله لم تحسُنِ الدُّنيا ولم تتربَّع (١)
اللهُ ثبَّتَ أرضَهُ بدعائم هُمْ حائطُ الدنيا وركنُ المجتمع
لو أنَّ كلَّ أخي يَراعٍ بالغٌ شاوَ (الرئيس) وكلَّ صاحبِ مِبْضَع
ذهب الكمال سُدى وضاع محلهُ في العالمِ المُتفاوتِ المُتنوِّع

***

يا نفسُ مثلُ الشمس أنتِ أشعةٌ في عالمٍ وأشعةٌ في بَلْقَعِ
فاذا طوى اللهُ النهارَ تراجعتْ شتّى الأشعةِ فالتقت في المرجع
لما نُعيتِ الى المنازل غُودِرَتْ دكًّا وشاكُ في المنازل ما نَعي
ضجَّتْ عليكِ معالمًا ومعاهدًا وبكتْ فراقَكِ بالدموعِ الهُمَّع (٢)
آذنتها بنوىً فقالتْ ليتَ لم تصل الحبالَ وليتَها لم تقطَع
ورداءُ جثمانٍ لبستِ مرقَّعٍ بيدِ الشباب على المشيب مُرقَّع
كم بنتِ فيهِ وكم خفيتِ كأنهُ ثوبُ المُمثِّل أو لباسُ المُرْفِع (٣)
أسْبَلْتِ من دياجيهِ فنزعتهِ والحمدُ أكفانٌ اذا لم يُنزَع
فزعتِ وما خفيتِ عليها غايةٌ لكنَّ مَنْ يرد القيامةَ يفزع (٤)
ضرعتْ بأدمعها اليكِ وما درتْ أنَّ السفينة أقلعتْ في الأدمُع
أنتِ الوفيةُ لا الذمامُ لديك مذْ ثُمَّ ولا عهدُ الهوى بمُضيَّع
أزمعتِ فانهلتْ دموعُكِ رقةً ولو استطعتِ إقامةً لم تزمعي
بانَ الأحبةُ يومَ بينِكِ كلُّهمْ وذهبتِ بالماضي وبالمتوقع

(١) اي لولا كبار النفوس لما ارتقى العالم وصلحت الامم والمقصود من الكمال هنا بلوغ النفس الكمال في النبوة او ما يقرب من الكمال في بعض البشريين من الناس والرئيس منهم (٢) فاعل ضجت عائد الى المنازل اي الاجسام ومعالم ومعاهد منصوبتان على التمييز . اراد بالمعالم ذوي النفوس الصغيرة وبالمعاهد ذوي النفوس الكبيرة (٣) المرفع الكرنفال الذي يلبس الناس فيه ثياباً مزوقة (٤) فزعت تأهبت او استجارت والضمير عائد الى الاجسام واراد بالقيامة ساعة الموت